مقدمة

فى الستينات وفى أعقاب حركة النقد الجديد، كانت التساؤلات الدائرة على لسان المتخصصين وغير المتخصصين تدور حول ماهية النقد الأدبى ومناهجه، بدعوى أن النقد الأدبى أصبح يعتمد على مفاهيم العلوم الإنسانية، والتجريبية اعتمادا أساسيا فى دراسته للأثر الأدبى. هذا الاتجاه يعد فى نظر بعض النقاد اتجاها مضادا لطبيعة الأدب، ولا يدخل فى نطاق البحث الأدبى، نظرا لأن الأثر الأدبى لا يحتل مكانة أساسية فى هذه الدراسات.

فالحقائق السيكولوجية والسوسيولوجية أو الفلسفية قد طغت على دراسة الناقد. ولكن البعض الآخر من النقاد، رأوا أن الوظيفة الأساسية للنقد هى الوصول إلى المعانى الخفية العميقة فى الأثر الأدبى وأن مراعاة طبيعته تتطلب الاعتماد على نظرية عامة للعلامات. فلمعرفة الأدب، يجب الاستعانة بدراسات العلوم الإنسانية، لكى تساعدنا على فهم معانيه ودلالاته المتعددة. وتعد وظيفة الناقد وظيفة علمية نظرا لأنه يعتمد على تحليل اللغة الرمزية للأثر، ويعتبر هذا، الأخير واقعة انثروبولوجية.

لقد تجلت بوضوح فى المرحلة الراهنة مظاهر تعدد الاتجاهات النظرية، وشدة الصراعات الفكرية التى استقرت أخيرا عن انتصار النزعة العلمية فى النقد لاسيما بعد شيوع المنهج البنائى فى ميدان النقد خاصة وفى ميدان العلوم الإنسانية عامة.

ولعل هذا هوا السبب فيما ذهب إليه بعض النقاد من أن وراء النقد الأدبى المعاصر ابستمولوجيا خفية تود أن تحقق نمطا من الوضعية الجديدة. فالكتابات

الشائعة الآن فى ميدان النقد الأدبى فى أوروبا أو فى أمريكا ـ رغم ظهور النزعة التفكيكية ـ إلا إنها تتميز بحرصها الشديد على التزام حدود العلمية.

والحق أننا لو أمعنا النظر فى الاتجاهات النقدية المتباينة التى نلتقى بها لدى كل من بارت وجولدمان وتشومسكى وجاكبسون وغيرهم، لوجدنا أنه ليس ثمة منهج واتجاه واحد يجمع بينهم، لأن النقد الجديد الذى يجمع بينهم ليس له مدخل واحد، فهناك من يركز على بنية الأثر ويهمل جانبا شخصية الكاتب أو المجتمع الذى يرتبط به، مما يؤدى إلى التركيز على تحليل الأثر فى ذاته، دون النظر إلى العوامل التى ساهمت فى تشكيله وفى توجيهه. وهناك من يركز على الصلات بين بنية الأثر وبنية العالم الخارجى. هناك لاشك لقاء ذهنى بصفة عامة ومنهجى بصفة خاصة بين نقاد متباينين يعيشون معا عصرا واحدا ألا وهو عصر النزعات العلمية.

والحق أن الذى يجمع بين بارت وجولدمان لا مفهوم الأثر الأدبى الواحد، وإنما هو التمسك بالنزعة الوضعية، والتشبث بتطبيق مناهج العلوم التجريبية والإنسانية فى دراسة الأثر الأدبى. فالقول بأن النقد الأدبى أصبح علما لافنا، أنما يعنى أن مهمة النقد قد تغيرت ولم تعد تعتمد على التأملات الميتافيزيقية والطرق العشوائية، وأصبحت فى أساسها مهمة علمية منهجية لدراسة الآثار الأدبية والفنية عموما، سواء أكان الأثر نمطا بنائيا أو بناءا صوريا أو رمزا للحياة الاجتماعية... الخ.

والقول بأن مهمة النقد الأدبى أصبحت مهمة علمية، لأن الأثر الأدبى يتضمن لغة رمزية عميقة متعددة المعانى تتطلب الفهم والبحث فى معانيها وهذا يحتم على الناقد أو الباحث الاستعانة بمناهج تلك العلوم. هذا القول ليس قولا معيبا طالما أن النظرية النقدية بوجه عام لا تستطيع الاستناد إلى مصادر ذاتية لهذا يجب أن تدعمها النظرية العلمية والنظرية الميتافيزيقية نظرا لأنه لم تتوافر فيها اللغة والمصطلحات التى يمكن بفضلها أن تحقق تلك المصادر الذاتية. ولكن القول بأن مهمة النقد أصبحت مهمة علمية تعتمد على المعايير العقلية لأن الأثر الأدبى نمط بنائى ذو لغة رمزية متعددة المعانى والدلالات، أنما فى الحقيقة قول ناقص يفسر

الأثر الأدبى على ضوء نظرة وحيدة الجانب. والسبب فى ذلك أن الأثر الأدبى لا ينطوى فقط على أنماط عقلية من البنيات، نظرا لأن هذه البنيات تتفاعل بصورة دينامية مع مضمون الحياة النفسية أو الاجتماعية رغم أن مفهوم البنية فى ميدان النقد الأدبى، يعد مفهوما فكريا خاصا يحمل فى طياته تجديدا وانقلابا نقديا فى تاريخ النقد المعاصر.

والواقع حينما صدر كتاب جولدمان Goldman المسمى "سوسيولوجيا الرواية" سنة ١٩٦٤. وحينما ظهر فى أعقابه مؤلف بارت Barthes الموسوم باسم "درجة الصفر فى الكتابة" سنة ١٩٦٥. وهما الكتابان اللذان أحدثا ضجة كبرى فى عالم النقد، كما حظيا بالكثير من الاهتمام من جانب النقاد. هذا الحدث المزدوج قد دفع بالنقد الجديد من نزعته العلمية إلى نزعة ايديولوجية. ودليل ذلك أن المفهوم النقدى الذى انطوت عليه حركة النقد الجديد قد جاء مؤكدا للدعوى القائلة بأن تضاعيف هذا الاتجاه النقدى الجديد انكار لقدرة النقد القديم على القيام بتطوير مهمة النقد ومن ثم فقد أخذ البعض يؤكد أن النداء الخاص الذى اتحدت عنده كلمة النقد الجديد هو اعلان نهاية النقد القديم.

والمشاهد أن المدافعين عن حركة النقد الجديد باعتبارها حركة علمية تدعو لفهم أو تفسير الأدب على ضوء منهج علمى محض، قد لا قوا فى هذا المنظور النقدى خصوما من أنصار "النقد التقليدى" فهذا الأخير يعد من وجهة نظرهم مجرد تشويه أو سوء فهم لصميم الطابع العلمى للنقد. ويذهب واحد من أصحاب النقد الجديد فى رده على "أصحاب النقد التقليدى "فيقول:" إن الأثر الأدبى يتضمن بحكم بنائه لغة رمزية ومعانى متعددة، ولفهم هذه المعانى المتعددة ينبغى أنشاء علم مستقل يسمى "علم الأدب" ويضيف بأن خصوصية الأدب لا يمكن أن تحقق إلا بإنشاء نظرية عامة للعلامات، تعتمد على شتى مجالات العلوم الإنسانية، ولا يهمنا – فى هذا الصدد – أن نتوقف عند مضمون هذه العبارة التى ترى فى إنشاء علم الأدب ضرورة لفهم دلالات الأثر الأدبى، وإنما الذى يعنينا من وراء ذلك هو أن نكشف عن المنظور العلمى أو البعد الأيديولوجى الذى انطوت عليه حركة النقد الجديد.

حقا، أن النقد الجديد قد ظهر فى أساسه للتعبير عن حاجة الأدب المعاصر إلى لغة نقدية ذات طابع علمى، وكأنما هى مجرد تعبير عن حاجة النقد إلى نظرية علمية. والبحث عن لغة علمية للنقد، لم يحل دون ظهور النقد الجديد بمظهر الموقف النظرى، وبالتالى فإنها قد خلقت من معارضة النقد الجديد للنقد التقليدى صورة جديدة من صور الجدل النقدى.

ومن مظاهر هذا " الموقف النظرى"، هو تلك الحملة التى شنها دعاة النقد الجديد، وفى مقدمتهم بارت خصوصا فى كتابه المسمى "النقد والحقيقة" ودوبرفسكى فى كتابه المسمى "لماذا النقد الجديد" وفبير فى كتابه المسمى النقد القديم والنقد الجديد أو ضد بيكار "حيث تتجلى بوضوح نزعتهم العلمية الجديدة.

وحينما ظهرت محاولة جولدمان لتفسير الأدب تفسيرا علميا سوسيولوجيا يعتمد على مفاهيم النقد البنائى ومفاهيم علم الاجتماع فى وقت معا، هنالك تم نمط من التلاقى بين هذه السوسيولوجية العلمية الجديدة من جهة وبين النقد الجديد من جهة أخرى. وقد كانت نقطة التلاقى بين الاتجاهين على المستوى النظرى، إنما هى تلك النزعة العلمية للنقد (أعنى تفسير الأثر باستناده إلى لغة علمية).

ولم تكن هذه القراءة النقدية الجديدة للأدب من جانب جولدمان وأتباعه مجرد محاولة علمية لتخليص النقد الأدبى السوسيولوجى من التفاسير المبتذلة، والأنظار الميتافيزيقية المحضة، وإنما كانت أيضا تأكيدا لذلك الموقف النظرى العلمى الذى كان من آثاره تصفية الدراسة النقدية من شوائب التأويل المبتذلة، من اجل استبعاد كل إحالة إلى الانطباعات، أو التأثيرات الوجدانية لقراءة الأثار الأدبية التى يعتبرها النقد التفكيكى مبدأ من مبادئه الجوهرية.

ان النقد الجديد لم يعد مجرد حركة منهجية علمية تبرز أهمية مفهوم اللغة العلمية فى تفسير الظواهر الفنية والفكرية،،، الخ، بل أصبح شيئا أكثر من مجرد تطبيق للمنهج النقدى العلمى على الآثار الأدبية. أذ صار المحور الذى تدور حوله المشكلة الأدبية التى تواجه الباحث او الناقد إلا وهى: ماهية الأثر الأدبى فى ضوء تلك

النظرة النقدية العلمية؟ إن هذه الآراء تود أن تبرز بصفة مطلقة الحاق النقد الأدبى بالعلوم الإنسانية والتجريبية خصوصا وأن كلا من بارت وجولدمان قد أعلن بوضوح أن الجهود النقدية التى يقوم بها هى الكفيل بدفع النقد نحو ميدان العلوم الإنسانية، باعتبار أن النقد الأدبى اليوم يحمل فى طياته مجموعة العلوم المهتمة بدراسة بنيات الأثر ودلالاته. فلابد لنا مع ذلك من محاولة التعرف على الوضع الحالى للأثر بعد حركة النقد الجديد، أو بالأحرى، ما الذى أصبح فى وسع الناقد أن يقوله بعد التطور الذى أحرزته الدراسات النقدية فى مجال التحليل النفسى، والسوسيولوجى والفينومونولوجى؟،،، الخ. وفضلا عن ذلك، فإنه من المؤكد أن نقاداً من أمثالة جولدمان، وبارت، ودوبرفسكى وجاكبسون إنما يدينون بالشئ الكثير فى صميم تفكيرهم النقدى للدروس المنهجية التى تلقوها من ميدان العلوم اللسانية والتجريبية، حقا أنه ليس ثمة منهج واحد يجمع بين كلا هؤلاء النقاد ولكن هناك – مع ذلك مناخا فكريا مشتركا – يبرر الجمع بينهم فى إطار نقدى واحد ولعل هذا ما جعل الناقد الفرنسى المعاصر دوبرفسكى يشير إلى وجود سمات مشتركة تجمع بين كل المنتمين إلى النقد الجديد ومن بينهم تدوروف (ناقد شكلى) وبلوم (ناقد نفسى) ولنهاردت (ناقد سوسيولوجى)... الخ.

لسنا الآن بصدد حصر السمات العامة المشتركة بين اتجاهات النقد الجديد. وإنما حسبنا أن نقول – مع دوبرفسكى – أن للنقد الجديد مثلا أعلى واحد مشترك يتلخص فى البحث عن لغة علمية لدراسة الأثر الأدبى. ولكننا ما نكاد نتجاوز هذا المثل الأعلى المشترك، بين كافة الاتجاهات حتى نجد أنفسنا بإزاء اتجاهات نقدية متباينة، تحاول التوصل إلى نظرية نقدية تحت تأثير العلوم الإنسانية. وهذه المحاولة تعد من بعض الجوانب محاولة يوتوبية لا علمية. هذا برغم وجود حشد من المداخل النظرية النقدية الوصفية تارة، والوظيفة تارة أخرى، والشكلية طورا، والتاريخية طورا آخر، تلك المداخل النظرية المتباينة التى اختلطت فيما بينها أشد الخلط وامتزجت فى النقد الأدبى المعاصر وظهرت فى كتابات بارت وجولدمان، ومورن، وتدوروف، وبروب، وغيرهم.

إن الاتجاهات النقدية التى تتابعت وتواترت خلال السياق النظرى، المتكامل فى تاريخ النقد الأدبى المعاصر هى بمثابة مواقف تراكمت حتى خيل إلى مؤرخى النقد أنها جميعا بمثابة المناهج أو الطرق تتخذ مجموعة من المسارات للتوصل إلى النظرية النقدية. ومن هنا تعددت النزعات وتضافرت الاتجاهات كى تصب قضاياها ومفاهيمها فى أشكال متمايزة من أجل تحقيق نظرية نقدية إلا أن هناك صعوبات تقف حجر عثرة من أجل تحقيق نظرية نقدية علميه، إلا أننا سنفصل القول فى هذه الصعوبات فى مواضع أخرى من البحث.

أما الآن فيمكن أن نشير إلى أن النقد الأدبى اليوم يود أن يؤسس مجموعة من القضايا والأسس النظرية التى يستخلص منها الباحث أو الناقد أحكاما عامة تقرر وجود علاقة موضوعية بين بناء الأثر وبين عناصره الداخليه، او بين بناء الأثر والبنيات الاجتماعية، معتمدا فى ذلك على المشاهدات والفروض والإجراءات التجريبية. انطلاقا من التزامه بالمعايير العقلية فى تحليل الأثر، على الرغم من أن المفاهيم الميتافيزيقية مازالت مستغرقة فى أصول النقد الأدبى. فهى مبعث القضايا النظرية الأولية التى توجه الدراسة الأدبية وتنظم جانبها التجريبى.

فالمفاهيم الميتافيزيقية تمد النقد الأدبى كما تمد العلوم الإنسانية بالافتراضات المفيدة التى تستضئ بها النظرية النقدية، وغيرها من النظريات فى مجال العلوم التجريبية أو مجال العلوم الإنسانية.